ذخائر العرب

٤٥

# غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات

لعلى بن ظافر الأزدى المصرى

تحقيق


دكتور
محمد زغلول سلام
أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها
بجامعة الإسكندرية (سابقاً)

دكتور
مصطفى الصاوى الجوينى
أستاذ الأدب المساعد
بجامعة عين شمس (سابقاً)



دار المعارف

ذخائر العرب

٤٥

# غرائب التنبيهات
# على عجائب التشبيهات

لعلى بن ظافر الأزدى المصرى

تحقيق


دكتور
**محمد زغلول سلام**
أستاذ كرسى اللغة العربية وآدابها
بجامعه الإسكندريه (سابقا)

دكتور
**مصطفى الصاوى الجوينى**
أستاذ الأدب المساعد
بجامعة عين شمس (سابقا)



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

# غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات

لعلى بن ظافر الأزدى المصرى

# مقدمة التحقيق

# مقدمة

## المؤلف : على بن ظافر الأزدى المصرى

## المتوفى سنة ٦٢٣ هـ

ولد ابن ظافر فى القرن السادس الهجرى سنة سبع وستين وخمسمائة ، فى عصر كانت القرى الإسلامية تتجمع فيه لملاقاة الصليبيين ، وفى بيئة يسودها الحماس الدينى وتشتعل بنار الرغبة فى الجهاد . ويخيم عليها قتام الحرب والقتال .

فى هذا الجو ولد ابن ظافر وتلقفه والده ، فتعهده بالتربية الدينية ، وذكرت مصادر حياته أنه قرأ على والده الأصول وتفقه على يديه . وكان والده يدرس بالمدرسة المالكية بمصر [١] ولم تكشف المصادر بعد ذلك عما إذا كان قد حفظ القرآن ، كله أو بعضه ، وحصل قدراً من الحديث لا بد منه ، إلى عناصر ثقافية أخر يتطلبها التعليم الإسلامى فى ذاك الأوان . وعلى أية حال فإن والد ابن ظافر كان يرسم لعلىّ خطًّا فى الحياة ، وكان الفتى يرسم لنفسه خطًّا آخر ؛ فقد كان متعلقا منذ شبيبته بالدنيا[٢] ، متطلعا لعتبة السلطان ، وأعد لخطة حياته عدتها فثقف الأدب وعلوم اللسان العربى ، شأن كتاب العصر وشعرائه الذين يرقى بهم أدبهم إلى مرتبة الوزارة ، وبرع فى الأدب ، فوجد فى أديب العصر وراعيه الأدبى ، والوزير الخطير آنذاك القاضى الفاضل ما يأمل من تشجيع ورعاية . ولندع قلمه يحكى طرفاً من الحديث عن بدء حياته مع الأدب يقول : « . . كنت فى صدر عمرى وبدء أمرى نشطت لجمع أخبار الشعراء فى البدائه والارتجال ومحاسن أشعارهم فى مضايق الإسراع والإعجال ، وسجعت حكايات لم يرقّصها فى الطرس بنان ، ولم يطمثها قبلى إنس ولا جان ، فأوقفت عليها صدر ذلك الزمان ، وسيد فضلاء ذلك الأوان السيد الأجل الفاضل أبا على عبد الرحيم بن الحسن البيسانى ، رحمه

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر جـ ٢ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

الله تعالى ، فحثنى على الازدياد منها ، والتطلب لها والبحث ، فاجتمع من ذلك جزء أحكمت ترتيبه ، وهديت تبويبه ، وسميته بدائع البدائه ، ورتبت الأخبار فى كل باب منه على ترتيب الأعصار . . . . ، فلما رأى ما اجتمع منه سر به واغتبط ، وأكرم نزلته فاغتبط ، وشرفنى على صغر سنى ونضارة غصنى بأن أنتسخه لخزانته وحباه بحفظه وصيانته » .

ولتتم لابن ظافر أدوات خطته فى الحياة عكف على كتب التاريخ يدرسها وعلى أخبار الملوك يحفظ منها جملة وافرة . وهكذا تجمعت له أسباب ثقافية من علوم إنسانية ولسانية ودراسات إسلامية أهلته جميعا لشغل منصب الأستاذية . ويروى أنه درس بالمدرسة المالكية بمصر بعد أبيه [١] ، ويبدو أنه شغل هذا المنصب فى أخريات حياته بعد أن تنقلت به الأسباب فى خدمة الملوك .

وربما كان أول اتصاله بالملك الأفضل على بن صلاح الدين فى مرج عكا[٢] ، ثم اتصل بعد ذلك بالسلطان صلاح الدين ، وتوسل إليه بمؤلف تاريخى أدبى هو كتاب « ذيل المناقب النووية »[٣] . وخلص بعد وفاة صلاح الدين لابنه الأفضل على (المتوفى سنة ٦٢٢ هـ) الذى تولى دمشق ، وكان قد لقيه فى مرج عكا ، وقدم له قصيدة أوردها فى صدر كتاب التشبيهات ثم أهدى له هذا الكتاب نفسه بعد سنوات حين تولى السلطنة ، وكان لا يزال حينئذ فى ميعة الشباب .

وترسل ابن ظافر بعدئذ إلى الديوان العزيز[٤] . ثم تنقل فى خدمة ملوك الدولة الأيوبية فاتصل بالملك العادل أبى بكر أخى صلاح الدين ، وكبير الأيوبيين من بعده ، وذكر ذلك فقال : « كنت فى خدمة مولانا العادل خلد الله ملكه بالإسكندرية سنة إحدى وستمائة مع من ضمت حاشيةُ العسكر المنصور من الكتاب ، ودخلت سنة اثنتين ونحن مقيمون بالخدمة مرتضعون لأفاويق النعمة »[٥] . ثم اتصل

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر جـ ٢ ص ١٠٦ / ١٠٧ .
(٢) ذكر هذا فى الإهداء الذى قدم به لكتاب التشبيهات .
(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٣ ص ٦٩ وهذا الكتاب خط بالأسكوريال .
(٤) يقصد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين والذى تولى مصر بعد وفاة أبيه . راجع وفيات الأعيان جـ ٢ / ٤١٤ .
(٥) بدائع البدائه ص ١٧٧ — ١٧٨ .

بعد بالملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر ، وكان يتولى الإمارات الشرقية فى حياة أبيه ثم تولى بعد ذلك الشام، وكان اتصاله بهسنة ثلاث وستمائة ( ٦٠٣هـ )[١]. ويكشف عن ذلك فى مقدمته لبدائع البدائه . وهنا نراه يتوسل بهذا الكتاب مرة ثانية ، وقد اكتمل ونضج هذه المرة للقربى من الأشرف وكان محباً للأدب بعد أن كان عرضه من قبل على القاضى الفاضل. يقول ابن ظافر فى البدائع : « .. ولم يزل ذلك الجزء — يعنى بدائع البدائه المهدى للقاضى الفاضل — عنى منسى الذكر ، وعندى خامل القدر حتى مثلت بالجناب العالى الملكى الأشرفى ، أعز الله سلطانه فى سنة ثلاث وستمائة ، وذلك قبل أن أتمسك بحبله ، وآوى إلى ظله ، فجرى فى مجلسه ذكر ذلك الجزء فحسن من خاطره موقعه ، فرسم لى نقله . وقد كنت فى زمن فترتى جمعت أخباراً كثيرة قارب حجم الجزء الأول مجموعها ، وفاق على كثير منه مسموعها ، فجمعت شمل الطارف والتليد ، والقديم بالجديد وأنفذت به ، وأوفدته عليه[٢] »

وهكذا نرى ابن الظافر بعد أن زاد فى ابتكاره الأدبى مادة قدمه للأشرف ، وقدر له أن يظفر بالقربى منه ، ويتمكن من نفسه ، وينزل المنزلة العالية . ويحكى لنا ذلك فيقول : وكنت عند المولى الأشرف أبقاه الله تعالى فى سنة ثلاث وستمائة بالرها ، وقد وردت إليه فى رسالة ، فأنزلنى بين سمعه وبصره فى بعض دوره بالقلعة بحيث يقرب عليه حضورى فى وقت طلبتى ، أو إرادة الحديث معى . . »[٣] ، ويزيدنا تأكيداً لهذه الحظوة فى موضع آخر فيقول فى بدائعه : « ومررت أيضا عليه ، وقد أنفذنى السلطان — خلد الله تعالى ملكه فى رسالة إلى الموصل فى سنة سبع وستمائة فلما عدت أمسكنى عنده نحو شهر بالرها ، وجرت لى عنده بدائه كثيرة »[٤]

ومما تقدم من النصوص يتضح لنا أنه اتصل بالسلطان العادل أبى بكر بعد استيلائه على ملك أخيه ، وأنه صحبه ، فكان فى عسكره بالإسكندرية سنة ٦٠١هـ وأنه سفر

---

( ١ ) وفيات الأعيان جـ ٤ / ٤١٣ .

( ٢ ) بدائع البدائه ص ٦ .

( ٣ ) المصدر نفسه ص ١٨١ .

( ٤ ) المصدر نفسه ص ١٨٢ .

بينه وبين ابنه الأشرف موسى سنة ٦٠٣ ، سنة ٦٠٧ هـ إلى أن يستقر من سنة ٦٠٨ هـ فى خدمة الأشرف موسى ، ويصرح فى موضع من كتاب البدائع بأنه « كان مقيماً فى أواخر سنة ثمان وستمائة بنصيبين فى خدمة الملك الأشرف لتدبير أحوالها وتزجية وجوه أموالها[١] »

وفى موضع آخر يقول : إنه كان برأس العين فى خدمة الملك الأشرف[٢] .

ولمن يتصل بالملوك أحوال ، فهم ساعة فى صعد يلمع نجمهم ويزهر ، وساعة فى صبب يخبو النجم فينطفئ ، والسلطان من لا يتصل بالسلطان كما قيل ، وهكذا كان ابن ظافر ، فبعد أن بلغ تلك المنزلة عند الأشرف وتولى له بعض المهام الرسمية والولايات ، انصرف عن خدمته ولكنه كان انصرافاً جميلا كما يقول : « . . وكان يصحبنى وأنا فى خدمة الأشراف — أبقاه الله — رجل كاتب حسن الخط من أهل العلم والخير ، هاجر إلى دمشق ، يقال له جمال الدين على الدين ابن أبى طالب ، فلما رأيت ما عليه الأحوال من الاختلال ، وقويت فى نفسى شهوة الانفصال ، كنت ليلى ونهارى مكبّاً على الدعاء بتسهيل ذلك وتعجيله، وتيسير ما أرجوه منه ، وأقمت على هذا مدة طويلة ، بحيث كان الأمر مشهوراً عند كل أحد من الحاشية ، فأخبرنى أنه بات مشغول القلب بما يسمعه منى فى ذلك ، فرآنى فى جامع دمشق تحت النسر ، وإلى جانبه شيخ ، وكأنهم ينتظرون الصلاة ، وإذا برجل شاب قد أقبل من الباب الغربى فقال له الشيخ : يا أبا العباس أجز :

إن ابن ظافر سوف يظفر بالذى يرجوه عاجل

فقال :

ظفرت عداه بخيبة وغدا لما قد شاء نائل

فسررت بذلك فلم يكن شىء أسرع من عود الملك الأشرف أبقاه الله من دمشق ، وانفصالى من خدمته على الوجه الجميل . وكان ذلك — والله — أعظم ظفر ، وأرفق قدر . ولو لم يكن فيه إلا الرجوع إلى الباب الذى منه درجت ، وفى خدمته

(١) بدائع البدايه ١١٢ .
(٢) بدائع البدائه ص ٥٥ .

تخرجت ، والوطن الذى هو أول أرض مس ثراها جلدى وعلقت فيه تمائمى ، فالله تعالى يحقق الرجاء ويكمل الأمل بمنه وطوله » [١] .

وانطلق من خدمة الملوك إلى وطنه ناعم البال ، ليقضى ما بقى من عمره متحرراً من قيد الخدمة السلطانية ومظاهرها وتكاليفها التى قد تبهر شاباً فى مقتبل حياته ببهرجها ولكنها تثقل كهلا قارب عمره الستين ، ولكنه وإن أراد ذلك وأحبه لنفسه طلباً للراحة والهدوء ، فإن الطمع غلاب ، والدنيا تغر . . . وهكذا بعد أن عاد على بن ظافر إلى مصر وطنه لم يعتزل وظائف الدولة كما أراد عند فراقه للأشرف ، أو كما تراءى له عندئذ ، وكاد فى محنة الملل من ضيق ألم به ، بل عاد من جديد يتولى وكالة بيت المال [٢] فى عهد الملك الكامل بن العادل .

واعتزل ابن ظافر وكالة بيت المال ليفرغ للتدريس ، ويعيش ما بقى من أيام حياته زاهداً متنسكا ، يدرس الحديث وعلوم الدين فى المدرسة المالكية ، حيث سبق أبوه إلى التدريس بها وظل كذلك حتى توفى سنة ٦٢٣ هـ . يقول ابن شاكر فى كتابه : « . . كان له ميل كبير إلى أهل الآخرة ، محباً لأهل الدين والصلاح ، أقبل فى آخر عمره على مطالعة الأحاديث النبوية وأدمن النظر فيها . روى عنه القوصى وغيره » [٣] .

وهكذا بدأ على بن ظافر حياته أديباً ، وختمها رجل دين ، وملأ مابينها من سنين نشاطاً فى الأدب والسياسة ، يكتب للسلاطين ويقوم على خدمتهم ومسامرتهم ، ويتولى لهم بعض الأعمال .

وفيما مر فى ثنايا ترجمته نجد العناصر الغالبة على ثقافته عناصر الأدب والتاريخ ، وقد ترك تراثا من الكتب فى هذين الموضوعين ، نجملها فيما يلى :

فى التاريخ :

١ — ذيل المناقب النورية ، وقدمه لصلاح الدين ، وتوجد منه نسخة خطية بالأسكوريال [٤] .

---

(١) بدائع البدائه ص ٥٦ .
(٢) فوات الوفيات ٢ / ١٠٧ .
(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ص ١٠٧ .
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ٦٥ .

٢ ـ الدول المنقطعة ، وهو كتاب مفيد جداً في بابه [١] ، ويصفه جورجي زيدان بأنه في أربعة مجلدات يشمل تاريخ الدولة الحمدانية ، والساجية ، والطولونية، والأخشيدية والفاطمية ، والعباسية إلى سنة ٦٢٢ هـ . ومنه نسخة في غوطا ، وفي المتحف البريطاني ؛ ونشر الجزء الخاص بالدولة الساجية في بون سنة ١٨٢٣م .

٣ ـ أخبار الملوك الساجوقية .

٤ ـ أساس السياسة [٢] .

ومما يجمع بين التاريخ والأدب :

٥ ـ أخبار الشجعان .

٦ ـ كتاب من أصيب ممن اسمه علي ، وابتدأ بعلي رضي الله عنه [٣] .

ولم يصلنا هذا الكتاب .

٧ ـ نفائس الذخيرة ، ولم يكمل .

٨ ـ مكرمات الكتاب [٤]

٩ ـ بدائع البدائه ، والذيل عليه ، وقد سلم البدائع ، أما الذيل فلم نعثر عليه؛ وقد نزع في البدائع منزعاً طريفاً إذ اتجه إلى جمع أخبار الشعراء مما يتصل بالقول على البديهة أو الإبداع والابتكار . وكان علي بن ظافر نفسه ممن يقول الشعر على البديهة ، وإن كان شعراً يعتوره ما يعتور شعر أصحاب الطبع من الخلل والتسهل وعدم الإتقان .

١٠ـ غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، وهو الذي نحن بصدد تحقيقه .

ونستطيع أن نقول إن ابن ظافر قد أجرى على كتبه ، كما يفعل كثير غيره من المؤلفين القدامى والمحدثين كثيراً من التعديل والتغيير ، فهذا الكتاب « التشبيهات» لا شك قد جرى عليه ماجرى على كتابه « البدائع » من إضافة لنصه الأصلي الذي ألفه في شبابه ، ولم يتركه على حاله التي قدمه بها للملك الأفضل علي .

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر جـ ٢/١٠٧ (٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر السابق ، ومعجم الأدباء جـ ١٣ / ٢٦٦ – ٢٧٦ وقد ورد اسمه محرفاً وصححته ماذكرناه .

(٤) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٣ / ٢٦٦ .

# التشبيهات

التشبيه فن من فنون التعبير الشعرى ، أولع به شعراء العرب منذ الجاهلية حتى العصور المتأخرة . وقال المبرد : « والتشبيه جار كثير فى كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد »[1] . وجعله قدامة بن جعفر فى كتاب « نقد الشعر » أحد أغراض الشعر الرئيسية كالمديح والنسيب والهجاء والمراثى والوصف[2] ، وذكر ابن سينا أن العرب تميل للتشبيه لميلهم إلى وصف الأشخاص لا الأحوال .

واهتم شعراء العرب المحدثون بالتشبيه ، وحاولوا أن يبدعوا فيه ، وقصد بعضهم إلى التشبيه لذاته كما فعل ابن المعتز وكثير ممن تبعه من أصحاب هذا الاتجاه من شعراء القرون المتأخرة .

واهتم علماء الأدب والشعر بهذا الفن التعبيرى وتتبعوه فى أشعار العرب ، ومن أول من فتح الباب فى تلك الدراسة ، المبرد فى كتاب الكامل إذ قال : « واعلم أن للتشبيه حداً ، فالأشياء تتشابه من وجوه وتتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس ، فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق ، قال الله عز وجل: ﴿كأنَّهن بيْضٌ مكنُون﴾ ، والعرب تشبه النساء ببيض النعام ، تريد نقاءه ونعومته وبياض لونه »[3] .

ويقول المبرد : «إن العرب طرقوا التشبيه فى أشياء معينة شبهوا بها غيرها وتداولوها فيما بينهم وتعارفوا عليها حتى صارت تقليداً ، وجرت مجرى الأصول فى آدابهم قال : « والتشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس ، وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم عن أصل أخذوه ، أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبى أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم والشعر بالعناقيد ، والعنق

---

(١) الكامل للمبرد جـ ٢ / ٤٢ .

(٢) نقد الشعر لقدامة بتحقيق كمال مصطفى وطبع الخانجى بمصر ص ٥١ .

(٣) الكامل ٢ / ١٧ طبع صبيح .

بإبريق فضة ، والساق بالجمار . فهذا كلام جار على الألسن »[1]

فالمبرد يرى رأى نقاد العرب القدماء الذين يهتمون بالتشبيه كأداة للبيان تبرز الصفة الغالبة فى المشبه أو المراد تغليبها عن طريق محاكاته : أو تشبيهه ومقارنته بشىء آخر تغلب عليه الصفة المذكورة ، وعرف بها فى أوهام الناس وبهذا يكون دور التشبيه التعبيرى هو نقل الصفة أو الصورة من الأكثر إلى الأقل . أو كما قال ابن رشيق : « وسبيل التشبيه — إذ كانت فائدته إنما هى تقريب المشبه من فهم السامع وإيضاحه له — أن تشبه الأدون بالأعلى إذا أردت مدحه وتشبه الأعلى بالأدون إذا أردت ذمه »[2] .

وفيما يقوله ابن رشيق وجهة نظر ، لأنه يحتمل فى العلوية والدونية هنا الدرجة ، التى عليها الصفة أو المشابهة ، ويحتمل تواجدها على تلك الدرجة عرفاً لا حقيقة ، كتشبيه الخدود بالورود مثلا؛ فقد درج الناس على تشبيه الخدود بالورد لأن الحمرة فى الورد غالبة فى الدرجة ، وقد يلجأ الشعراء إلى الإيهام بعكس ذلك لتعارف الناس على حمرة الخدود ، فتثبت فى الأذهان لها تلك الصفة فيشبه الورد بها بدلا من تشبيهها هى به .

ومن هنا فلا دونية هناك ولا علوية، ولا ذمّ إذاً فى تشبيه الورد بالخدود، بل تمليح وتجديد . وربما يرجع قول ابن رشيق هنا إلى قول ابن سينا كما نقله حازم القرطاجنى فى مناهج البلغاء وهو : « وكل محاكاة فإما أن يقصد بها التحسين ، وإما أن يقصد بها التقبيح ، فإن الشىء إنما يحاكى ليحسن أو يقبح »[3] . وهذا مرده بدوره إلى كلام أرسطو فى كتاب الشعر حيث تحدث عن المحاكاة فى الفن .

ويختلف قدامة عن المبرد وابن رشيق فى النظر إلى دور التشبيه فى الشعر إذ يرى أن التشبيه الجيد هو الذى تتفق فيه صفات أكثر بين المشبه والمشبه به حتى يصل الأمر بينهما إلى المطابقة يقول : « إنه من الأمور المعلومة أن الشىء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ، إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ٦٦ .

(٢) العمدة بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١ / ٤٠ .

(٣) فن الشعر لعبد الرحمن بدوى ص ١٧٠ .

تغاير ألبتة اتحدا فصار الاثنان واحداً ، فبقى أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ، و يوصفان بها وافتراق فى أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها ، وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ماأوقع بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد »[١] .

وعلق ابن رشيق على قول قدامة مخالفا فى الرأى فقال : « وزعم قدامة آن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما ، حتى يدنى بهما إلى حال من الاتحاد ، وأنشد فى ذلك — وهو عنده أفضل التشبيه كافة — :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة　　وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هى هى بعينها ، وأفعال بأفعال هى هى بعينها ؛ إلا أنها من حيوان مختلف كما قدمت ، والأمر كما قال فى قرب التشبيه ، إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ لأنه كتشبيه نفس الشىء المشبه الذى ذكره الرمانى فى تشبيه الحقيقة ، وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى يصير بينهما مناسبة واشتراك ، كما قال الأشجعى :

كأن أزيز الكير إرزام شجنها　　إذا امتاحها فى محلب الحى ماتح

فشبه ضرع العنز بالكير ، وصوت الحلب بأزيزه ، فقرب بين الأشياء البعيدة بتشبيهه حتى تناسبت »[٢]

وكلام قدامة، عن دور التشبيه ، كلام منطقى لا كلام فنان شاعر ، ذلك أنه يرى المطابقة فى الصفات أو فى الحكاية ، وأتم ما تكون تلك المطابقة بين الشىء ونفسه أو بين الشى ء والشىء من جنسه ، كالتشابه بين اليد، واليد والرجل والرجل . وليس دور التشبيه كما يراه قدامة مجرد تشابه شكلى أو معنوى ، إنما فيه جوانب أخرى تتعلق بالفن فى روحه ومعناه ودوره فى مخاطبة المشاعر والأحاسيس ، ومخاطبة الذهن والفكر .

---

(١) نقد الشعر ١٠٨ .

(٢) العمدة ١ / ٤٠ .

وتحدث الرمانى[1] عن المطابقة التامة فى التشبيه فسماه التشبيه الحقيقى كما ذكر ابن رشيق ، وسمى ما تشابه فى صفة أو صفتين بالتشبيه المجازى أى الذى يوقعه الشاعر ويأتى به من النيق البعيد ، كما يقول عبد القاهر الجرجانى ، ومن حيث لا يتوقع السامع أو القارئ فيهش له ويطرب لأنه يوقفه على شىء لم يقع عليه وينبهه إلى ما لَمْ يطرأ على ذهنه تنبه إليه .

وينظر ابن طباطبا إلى التشبيه من زاوية أخرى فيقول مثل صاحبه: « فأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض، بل يكون كل ما يشبه بصاحبه، ويكون صاحبه مثله مشتبها به صورة ومعنى ، وربما أشبه الشىء الشىء صورة وخالفه معنى ، وربما أشبهه معنى وخالفه صورة ، وربما قاربه ، وداناه ، أو شامه ، وأشبهه مجازاً لا حقيقة »[2] .

ويقول: « والتشبيهات على ضروب مختلفة ، منها تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به حركة وبطئا وسرعة ، ومنها تشبيهه به لونا ، ومنها تشبيهه به صوتا ، وربما امتزجت هذه المعانى بعضها ببعض ، فإذا اتفق فى الشىء المشبه بالشىء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه وتأكد الصدق فيه وحسن الشعر به للشواهد الكثيرة المؤيدة له »[3] .

ورأى ابن طباطبا هذا، وإن رجع فى كليته إلى قول قدامة، إلا أنه يقول بالتشبيه العكسى أى صحة انعكاس طرفى التشبيه دون إشارة إلى الدونية والعلوية ، ومن ثم إلى المديح أو الهجاء اللذين تصورهما مجرد علاقة فى طرفى التشبيه قدامة بن جعفر ، فيكون المديح تصاعد العلاقة من الأدنى إلى الأعلى ، والهجاء العكس . وربما صح ذلك بمقياس المنطق ، ولكنه لا يصح دائمًا بمقياس الذوق وفى صنعة الشعر حيث يلعب الشاعر بالتشبيه على أوتار الحس ، فيوهم بقيام علاقات لا وجود لها ويضخم الصغير ويصغر الكبير . ويشبه الشىء بالشىء من جنسه ومن غيره .

---

(١) راجع ماذكره عن التشبيه فى « النكت فى إعجاز القرآن » طبع دار المعارف سنة ١٩٦٨ الطبعة الثانية ، ضمن مجموعة ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن .

(٢) عيار الشعر بتحقيق الدكتور طه الحاجرى والدكتور محمد زغلول سلام ،وطبع التجارية بمصر ص ١١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧ .

كذلك ألح ابن طباطبا على تفاصيل وجوه الشبه مما يتصل بحاسة النظر ، أو حاسة السمع ، وفتح الباب أمام غيره لتفصيل الحديث عن وجوه الشبه الأخرى المتصلة ببقية الحواس كاللمس والشم والذوق التي يحيل إليها الشاعر فى التشبيه ليصل إلى إدراك المعنى الذى يريد التعبير عنه بطريق إشباع الحاسة التي يراها أقوى أثراً فيه .

والأصل فى فن التشبيه أنه تعبير فنى ، وأنه ضرب من المحاكاة فى صور الشاعر للطبيعة عن طريق البحث لما يريد التعبير عنه من المعانى عن معادل أو موازن حسى من الطبيعة أو البيئة المدركة بالحس .

ولما كانت القدرة الشعرية متفاوتة بين مدارك الحس ومدارك العقل ، تبعاً لتفاوت الشعراء فى ثقافاتهم وبيئاتهم ، وحيواتهم ؛ كذلك تفاوتت التشبيهات ، والصور الشعرية عامة بين مدركات الحس ومدركات العقل ، أو بمعنى أوضح تفاوتت فى الاعتماد على الحس والتصوير الحسى القريب من ناحية أو الاعتماد على التجريد العقلى من ناحية أخرى .

ونلاحظ بصفة عامة أن الأمم فى حياتها البادية ، وفى طورها الأول تعتمد فى لغتها وبيانها على الحس أكثر من الاعتماد على التجريد العقلى ، حتى اللغات نفسها نجدها تتدرج من غلبة الألفاظ الحسية المدلول فى الأطوار الأولى للأمم إلى غلبة الألفاظ ذات المدلول المعنوى أو العقلى فى أطوارها الراقية .

وقد غلبت الحسية على الشعر العربى فى الجاهلية ، ونضرب مثلا قول أوس بن حجر حين أراد التعبير عن انخفاض السحاب فقال :

دانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الأرضِ هيدبه      يكاد يدفعــه من قام بالــراح

والشعر الجاهلى بعد ذلك ملىء بالصور الحسية لحياة البادية وحيوانها ، وقد استغرق بعضهم وصف الناقة وصفا حسيًّا بصورة لا نعهدها فى غير الشعر العربى(١) وقال ابن طباطبا : « واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات

---

(١) راجع لايال فى مقدمته للمفضليات

والحكم ما أحاطت به معرفتها ، وأدركه عيانها ومرت به تجاربها ، وهم أهل وبر ؛ صحونهم البوادى وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها وفى كل واحدة منها فى فصول الزمان على اختلافها من شتاء وربيع ، وصيف وخريف ، من ماء وهواء ونار وجبل ونبات وحيوان ، وجماد ، وناطق وصامت ومتحرك وساكن ، وكل متولد من وقت نشوئه ، وفى حال نموه إلى حال انتهائه ، فتضمنت أشعارها من التشبيه ما أدركه عيانها وحسها » (١)

وقد تحول الاهتمام بالتشبيه من الرغبة فى التعبير بما يقع فى دائرة الحس من الأشياء إلى الرغبة فى التشبيه للتشبيه فى عصور الحضارة والازدهار ، للاستمتاع بالصورة التى يبدعها الشاعر ، وللإغراب فى تقصى وجوه الشبه ، والإبداع فى خلق العلاقات . وقد بدأ الاهتمام بالتشبيه لهذا الغرض فى الشعر العربى منذ القرن الثالث وطوال القرون التالية ، وربما كان ابن المعتز الشاعر البارز فى هذا المجال ، وهو الذى اختط لغيره طريق التشبيه للاستمتاع .

وقد لاحظ ابن سيناء كما أشرنا من قبل لهفة الشعراء فى عصره على الصور الشعرية من تشبيه أو استعارة وخاصة تشبيه الذوات فى صور « استاتيكية » ثابتة . يقال :

« والشعر اليونانى إنما يقصد فيه، فى أكثر الأمر ،إلى محاكاة الأفعال والأحوال لا غير ، وإنما الذوات فلم يكونوا يشتغلون بمحاكاتها أصلا كاشتغال العرب ، فإن العرب كانت تقول الشعر لوجهين أحدهما ليؤثر فى النفس أمراً من الأمور تعديه نحو فعل أو انفعال ، والثانى للعجب فقط ، فكانت تشبه كل شىء لتعجب بحسن التشبيه » (٢) .

وتطور التشبيه من الاستمتاع الحسى إلى الاستمتاع العقلى ، وإذا كان رائد الاتجاه الأول ابن المعتز ، فإن رائد الاتجاه الثانى أبو تمام ، ودعا له أنصاره من العلماء والنقاد ووضع أصوله وفلسفته الفنية عبد القاهر الجرجانى . وأصبح التشبيه عند هؤلاء لعبة عقلية تلذ العقل .

---

(١) عيار الشعر ص ١٠ .

(٢) فن الشعر لعبد الرحمن بدوى ١٧١ .

وإذا ما عدلنا عن الحديث في التشبيه وغاياته إلى حديث آخر فيما نستطيع أن نفيد به منه ، فإنا نرى أن فى التشبيهات الشعرية مادة غزيرة للكشف عن جوانب الحياة ، والطباع ومظاهر السلوك ، والنشاط الإنسانى فى أطوار البداوة والحضارة فضلا عن الصور والمشاهد الغنية الدقيقة للطبيعة الّتى قد لا نستطيع أن نلمسها أو نمر بها فتعطينا تجربة مفيدة كتلك الصورة الّتى رسمها الشاعر للحرباء فى قيظ الصحراء إذ يقول :

يضحى بها الحرباء وهو كأنه     خصم معد للخصومـــة موفق

ونعرف من عاداتهم وعقائدهم أنهم كانوا يعلقون حلى النساء على الملدوغ ليشفى من اللدغ ، ونعلم أن من كان يحترف الكتابة بينهم جماعة اليهود لكثرة ما يشبهون من خطهم وكتابهم كقول أبى حية النميرى :

كما خط الكتاب بكف يومًا     يهودى يقارب أو يزيل

ونحس بتفاصيل حياة الرعاة فى تشبيهاتهم المأخوذة من تلك الحياة كقول أ. النجم العجلى ويشبه الكمى ببعير دُهن بالقطران ليشفى من الجرب :

صدى القباء من الحديد كأنه     جمل تَعَمَّدهُ عظيم هنـــاء

ونعرف من عادات الرعيان أن يوقدوا النيرات فى رءوس المرتفعات ليهتدى بها السائرون ليلا ، ويصور لك امرؤ القيس صوراً جميلة ، وتعرف من منازلهم ومرابعهم وكيفية إقامة الخيام من دق الأوتاد وشد الأطناب ، وإقامة العمد: مما تردد كثيراً فى أشعارهم من تشبيهات مأخوذة من هذه الأشياء .

وتعلم أنهم يتابعون مساقط المياه وأنهم يتلهون بالغيث ، فيشتقون من صوره ومعانيه كثيراً من التشبيهات الّتى تقفك على مدى تقديسهم للمطر وكل ما يتصل به من برق وسحاب . وقال جرير :

ما استوصف الناس من شيء يروقهم     إلا رأوا أم نوح فوق ما وصفوا
كأنهـــا مزنة غراء رائحـــة     أو درة لا يوارى لونها الصدف

وقال الأعشى وشبه امرأة تمشى الهوينى بالسحابة :

كأن مشيتها من بيت جارتـــا     مر السحابة لا ريث ولا عجل

ونعلم من تشبيهاتهم بالرياح والنسائم أنهم كانوا يحبون ريح الشمال فهى ريح طيبة لأنها تأتى بالغيث ، وهى معطرة بريح الخزامى مبللة ندية ، وأنهم يكرهون ريح الجنوب ، وهى ريح الصيف ، وهى العقيم التى لا مطر فيها ولا ماء ، وهى الدبور .. وفيها كل مكروه مرذول .

ونعلم من تشبيهاتهم عاداتهم فى العبادة والتقرب إلى الأصنام بذبح الذبائح عليها وإراقة الدماء حتى تسيل على جانبيها كما قال النابغة :

تخدى بهم أدم كأن رحالها علق أريق على متون صوار

ونستشف كذلك من التشبيهات بيئات الشعراء ، وما لا قوه فى تلك البيئات من الأشياء ، فعلق بمخيلاتهم ؛ فأكثروا من التشبيه بها كعدى بن زيد فى بيئة الحيرة المسيحية حيث تكثر البيع والأديرة المسيحية ، فهو يصف صور العذراء فى المحاريب ، ويشبه بها كقوله :

كدمى العاج فى المحاريب وكالبيـ ـض فى الروض زهره مستنير

وكذلك فعل شعراء العرب الملاصقون للحيرة ، أو الذين أكثروا من الرحلة فى تلك المناطق التى تكثر بها الكنائس والبيع نجد فى أشعارهم تشبيهات عديدة بدمى المحاريب ، وبالرهبان وشموعهم .

وهكذا نستطيع أن نقف على أسرار كثيرة فى حياة العرب ومظاهر نشاطهم وعقائدهم من تتبع تشبيهاتهم فى الشعر القديم .

وما نستطيع أن نستخلصه من شعر العرب فى الجاهلية نستطيعه كذلك فى شعر المحدثين فنقف على أسرار حضارتهم الزاهرة فى أقاليمهم المتعددة من بلاد فارس شرقاً إلى الأندلس والمغرب غربا . وقد تعقدت الحياة العربية ودخلتها عناصر كثيرة من حضارات مختلفة فى كل جوانبها فى التقاليد والعادات ، فى الأذواق فى الطعام والشراب واللبس والسكن ، فى السلوك والأخلاق والطباع . ونستطيع أن نقف على كثير من هذا كله بتفصيلاته من التشبيهات ويجمع الكتاب الذى نحن بصدده نماذج كثيرة .

ونضرب مثالا لما يمكن أن يكشف عنه التشبيه من بيئة الشاعر بما رواه ابن

رشيق عن ابن الرومى قال : «يحكى عن ابن الرومى أن لائمًا لامه ؛ فقال : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ قال : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى صفة الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة  قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدنى ، فأنشده :

كأن آذر يونها  والشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب  فيها بقايا غاليه

فصاح : واغوثاه ، بالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن الخلفاء ، وأنا أى شىء أصف ؟ ، ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى . هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام :

وقد نشَّرت أيدى السحاب مطارفاً  على الأرض دُكناً وهى خضر على الأرض
يطرزها قوس الغمام بأصفر  على أحمر فى أخضر وسط مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل  مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى من قصيدة فى صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به  يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة  وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة  فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

قال ابن رشيق : وهذا كلام إن صح عن ابن الرومى فلا أظن ذلك أمراً لزمه فيه الدرك ؛ لأن جميع ما رآه ابن المعتز قد وجده فى ديارهم ، كما ذكر أن ذلك علة الإجادة وعذر ، فقد رآه ابن الرومى هنالك أيضا ، اللهم إلا أن يريد أن ابن المعتز ملك قد شغل نفسه بالتشبيه فهو ينظر فى ماعون بيته وأثاثه فيشبه به ما أراد ، وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر طالبا الرزق أمدح هذا مرة ، وأهجو هذا كرة ، وأعاتب هذا تارة ، وأستعطف هذا طوراً»[1] .

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١

ومثال لما يكشفه التشبيه من عادات الناس قول ابن حمديس الأندلسى فى تشبيه الكئوس وقد ملئت خمرا وصفت بفتيات حسان يلبسن ثيابا حمراً فى عرس؛ يقول :

وكأنما صور القنــانى إذا ملئت إلى لهواتها خمــراً
بيض الحسان وقفن فى عرس لما لبسن غلائلا حمــرا

فنعلم أن الأندلسيين كانوا يميلون إلى أن تلبس الفتيات ثيابا حمراء فى الأعراس ، على خلاف العادة عندنا الآن من لبس البياض ، ونعلم كذلك من من أخبار الأندلسيين أن البياض عندهم كان لباس الحداد .

ونعلم أن نقط العروس بدنانير الذهب عادة عربية من قول الخالدى :

حمراء حين جلتها الكأس نقطها مزاجها بدنانير من الذهب

ونقرأ تشبيه ابن رشيق للمشمش : فنعرف أن ملوك القيروان فى عصره كانت تنصب لهم خيام خضر تحف بها جلاجل . يقول :

كأنما المشمش لمــا بدت أشجاره وهو بها يلتهب
خضر قباب الملك حفت بها جلاجل مصقولة من ذهب

ونعلم من تشبيهات للطغرائى ، ولعلى بن ظافر؛ أن القوم كانوا يصنعون ، تأنقا قطعا من المسك فى كئوس الشراب . قال الطغرائى :

وترى شقائقه خلال رياضها أوفت مطاردها على أزهارها
وكأنها والريح تصقل خدها والسحب تملؤها بصفو قطارها
أقداح ياقوت لطاف أترعت راحاً وبات المسك حشو قرارها

وقال ابن ظافر :

أنظر إلى حسن شقيق الربـــا تنظر إلى ما يخجل الزهرا
من كل حمراء بها نقطة سوداء طابت بيننا نشرا
كمثـــل خد فوقــه شـــامة مسودة قد أنبتت شعرا
أو قطعة المسك إذا ألقيت فى وسط كأس ملئت خمرا

ومما يدل عليه التشبيه تطور الذوق العربى بتطور الحياة وأخذ الناس بأسباب الحضارة والمدنية ، فترق مشاعرهم ، وتصفو أحاسيسهم ، وتتهذب تصرفاتهم ، وتتغير نظراتهم للجمال والحسن فى الطبيعة وفى المرأة. قال ابن رشيق: « وقد أتت القدماء بتشبيهات رغب المولدون إلا القليل عن مثلها استبشاعاً لها ، وإن كانت بديعة فى ذاتها ، مثل قول امرئ القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه　　　أساريع ظبي أو مساويك أسحل

فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسروعة ، وهى دودة تكون فى الرمل ، وتسمى جماعتها بنات النقا ، وإياها عنى ذو الرمة بقوله :

خراعيب أمثال كأن بنانها　　　بنات النقا تخفى مراراً وتظهر

فهى كأحسن البنان ليناً وبياضا ، وطولا ، واستواء ، ودقة وحمرة رأس ، كأنه ظفر قد أصابه حناء وربما كان رأسها أسود ، إلا أن نفس الحضرى المولد إذا سمعت قول أبى نواس فى صفة الكأس :

تعاطيكها كف كأن بنانهـــا　　　إذا اعترضتها العين صف مدارى

أو قول على بن العباس الرومى :

سقى الله قصراً بالرصافة شاقنى　　　بأعلاه قصرى الدلال رصافى

أشار بقضبان من الدر قمعت　　　يواقيت حمراً فاستباح عفافى

أو قول ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة　　　مقومـــة أثمـــارهن عقـــيق

كان ذلك أحب إليها من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرئ القيس ، وإن كان تشبيهه أشد إصابة ». وقال ابن رشيق : « وكذلك صفتهم الخمر فى حبابها بسلخ الشجاع وما جرى هذا المجرى من التشبيه فإنه وإن كان مصيباً لعين الشبه ، فإنه غير طيب فى النفس ، ولا مستقر على القلب ، ومن ذلك قول أبى عون الكاتب :

تلاعبها كف المزاج محبـــة　　　لها وليجرى ذات بينهما الأنس

فتزيد من تيه عليها كأنهـــا　　　غريرة خدر قد تخبطها مس

فلو أن فى هذا كل بديع لكان مقيتاً بشعًا ، ومن ذا يطيب له أن يشرب شيئاً يشبه بزبد المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس ؟

وكأنى أرى بعض من لا يُحْسِنُ إلاّ الاعتراض بلاحجة قدنعى علىَّ هذا المذهب، وقال : رد على امرئ القيس ، ولم أفعل ، ولكنى بينت أن طريق العرب القدماء فى كثير من الشعر قد خولفت إلى ما هو أليق بالوقت وأشكل بأهله . وقد عاب الأصمعى بين يدى الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

على أنه تشبيه لا يلحق ، ولا يشق غبار صاحبه ، ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر السقيم ، فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به ، وفضل عليه قول عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها وسط النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عَيْنِه سنة وليس بنائم

ومثله قول أبى محجن الثقفى فى وصف قينة :

ترفع الصوت أحيانًا وتخفضه كما يطنّ ذباب الروضة الغرِد

فأى قينة تحب أن تشبه بالذباب ؟ »[1]

وبتغير الأذواق فى التشبيه نرى أكثر من ألف فى هذا الموضوع يميلون إلى تشبيهات معاصريهم أو من سبقهم بقليل ، وهكذا فعل صاحب هذا الكتاب ، لم يورد تشبيهات لقدامى الشعراء ، من الجاهلين أو المخضرمين أو من شعراء بنى أمية ، بل وتغاضى عن كثير من شعراء العصور العباسية الأولى .

(١) العمدة ١ – ٢٠٢

## الكتب المؤلفة فى التشبيهات

لم يكن كتاب « غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات » أول كتاب ألف فى هذا الموضوع ، بل سبقته كتب أخرى سنعرض منها كتابين تم نشرهما ، هما : كتاب « التشبيهات » لابن أبى عون الكاتب ( المتوفى سنة ٣٢٢ هـ )[١] وهو بغدادى ، وكتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » للشيخ أبى عبد الله محمد بن الكتانى [٢] .

وقد قسم مؤلف الكتاب الأول كتابه إلى اثنين وعشرين بابًا رئيسية إلى جانب أبواب ثانوية يلحقها بها يبدؤها بقوله: «ومما يتصل بذلك» . ويبدأ القول بالتشبيهات فى القرآن الكريم لأنه « كان أكمل شاهد وأصح حجة » ، وجمع مجموعة من تشبيهات العرب القدماء والمحدثين وبلغ مجموعهم ستة وسبعين وأربعمائة شاعر ، من بينهم ما يقرب من خمسين شاعراً من الجاهلية وعصر الإسلام ، وأربعون من الأمويين والباقون من الشعراء المحدثين فى العصر العباسى أمثال بشار بن برد وأبى نواس وأبى العتاهية ، وأبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى . ودافع عن كثرة اختياراته من المحدثين بقوله : « وقد تكررت فى كتابنا تشبيهات المحدثين مثل أبى نواس وبشار ومسلم والطائى والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وأضرابهم ؛ لأنا اعتمدنا على إثبات عيون التشبيهات المختارة والمعانى الغريبة البعيدة دون المتداولة المخلقة . والمتقدمون وإن كانوا فتحوا القول وفتحوا للمحدثين الباب ونهجوا لهم الطريق فكان لهم فضل السبق واستثار المعانى وصعوبة الأداء فإن هؤلاء المحدثين قد أحسنوا التأمل وأصابوا التشبيه وولدوا المعانى . وزادوا على ما نقلوه ، وأغربوا فيما أبدعوا » [٣] .

وقد نبه إلى أنه لم يحص تشبيهات القدماء والمحدثين ، بل اختار من بينها ما رآه

---

( ١ ) قام بتحقيق : الكتاب محمد معيد خان وطبع بكمبردج سنة ١٩٥٠ .

( ٢ ) قام بتحقيقه : الدكتور إحسان عباس وطبع بدار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٦ .

( ٣ ) التشبيهات لابن أبى عون ص ٧٤ .

مناسبا ، وقال إنه لو استنفد ما شَبَّهَهُ القدماء فى الناقة وسائر الحيوان، أو النساء وغيرها من الأشخاص والأشياء لطال الكتاب « وإنما قصدت إلى الاختيار مما يعتمد على السهولة والقريب دون البعيد ، والنقى اللفظ ، والمعنى الغريب ، والجيد حيث وجد قديمًا وحديثا ، والغض والنادر أين كان » .

## التشبيهات من أشعار أهل الأندلس :

ويأتى الكتانى بعد ابن أبى عوف بقرن من الزمان فيؤلف هذا الكتاب فى التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ويقسم كتابه إلى ستة وستين بابًا ، تبدأ بباب التشبيهات فى السماء والنجوم والقمرين وما يتصل بهما كالصبح والريح والبرق والرعد والسماء والمطر ، ثم يجىء الباب السادس فى مظاهر الطبيعة الأرضية كالربيع والزهر والورد ، وتغريد الطير فى الرياض ، ووصف الحمام ثم التشبيهات الواردة فى الآبار والمياه الجارية والأنهار ، والمياه الأواجن ، ثم فى القصور والبساتين والصهاريج والأشجار ، والناعورة والرحى ، ثم فى المأكولات من الفواكه وغيرها ، والشراب وأوصاف الخمر ، وصفة الكئوس والأقداح والسقاة والندامى ، ثم فى القيان والمغنين ، وفى أدوات الغناء كالعود والطنبور وسائر المعازف ، ويتبعها بباب فى الشعر على اعتبار أنه الكلام الذى يتغنى به ، ثم يخصص مجموعة من الأبواب فى الحسن عامة ، فى النساء والغلمان مقسمًا الحديث عن حسن الأعضاء ، كالشعر وسواده . وشقرته ، وفى أصداغ القيان ، وعذر الغلمان والخدود والخيلان ، وفتور العين ومرضها وغنجها ، وفى الثغر وطيب الريق وفى النهود .

وتعتبر كل تلك الأبواب فى تشبيه الأشخاص ، أو الأشياء والذوات ، يعقبها بأبواب أخر فى تشبيه الأحوال ، وخاصة أحوال المحبة ، كالحديث والعناق ، والبكاء، وخفوق القلب وطول الليل والسهر والخيال ، والطيف والنحول ، والوقوف على الديار والربوع . . .

ثم يتحدث عن أحوال الطبيعة بعد أحوال الإنسان ، فيورد التشبيهات فى النيران والشتاء والصقيع ، والسفر وما يتصل به من قطع المفاوز ، والسراب والبحر والسفن والطرد وما يتصل به ، وذكر الحيات والحرب والخيل والسيوف والرماح والقسى

والنبال والدروع والرايات والطبول ، ووصف الطعان والضراب .

وينتقل للحديث عن الكتابة والعلم ، وأدواتهما كالدواة والقلم والصحيفة والسكين والمذبة والمروحة والجلم .

ويورد التشبيهات فى الصفات النفسية كالجود والبخل وما إليهما ، وما جاء فى اللذات والطرف وأولها لذة الطعام فى الخوان والأكل ، ثم فى حديث النساء ، وما يتصل بهجو المغنيات ، وهجو الثقلاء والكذبة ، وما يتصل بالرجال كاللحى والطيلسان والدرهم .

ويختتم الكتاب بأبواب تتصل بعبر الحياة من فناء الناس وتقلب الدهر بهم : والتشبيهات فى الشيب والهموم ، وذم الدنيا ، وذكر الموت ، وفى صفة المرثى والأجداث ، ثم فيما جاء من شواذ التشبيه .

ويقول محقق الكتاب : « إن المؤلف قد حاول أن يعرض المجالات التى اتصلت بها ملكة التصوير عند الأندلسيين سواء أخضعت لترتيب موضوعى أو لم تخضع ، وأنه أطلعنا من خلال هذه المختارات على مبلغ ما بذله الشعر الأندلسى من عناية بالصورة فى دور مبكر من تاريخه ، حتى أصبح طلب الصورة فيه غاية كبرى ، بل أصبح بعد زمن أكبر غاية »[1] .

ويتفق كتاب التشبيهات للكتانى مع كتاب ابن أبى عون فى بعض الوجوه وخاصة من حيث ترتيب الكتاب ، والاشتراك فى بعض الأبواب مثل باب « هجاء القيان »[2] . ولكنه يختلف عنه فى المنهج وفى اقتصاره على شعر الأندلسيين ، وكانت تلك النزعة غالبة على كثير من أدباء الأندلس .

---

( ١ ) الدكتور إحسان عباس فى مقدمة التحقيق ص ١٦ .

( ٢ ) جاء هجاء القيان فى كتاب ابن أبى عون ص ١٢٧ ، وفى كتاب الكتانى باب فى « هجو النساء والمغنيات » ص ٢٥٧ .

## صفة المخطوطة المحققة

اعتمدنا فى تحقيق كتاب «غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات» على النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة بالإسكوريال والمصورة بمعهد المخطوطات العربية .

وتبدأ النسخة بتعليقات على الصفحة الأولى بخط مغربى .

والنسخة مكتوبة بخط النسخ المنقوط المضبوط بالشكل ، ورقمت أوراقها بأرقام إفرنجية تبدأ من رقم ١ إلى رقم ٨٤ فى تسلسل غير منقطع ، فتكون عدة صفحات النسخة ثمانيا وستين ومائة صحيفة .

ومسطرتها من ستة عشر إلى سبعة عشر سطراً فى الصحيفة ، وعدد كلمات السطر من ٧ إلى عشر كلمات .

ووقع بها خرم أتى على جزء كبير من الصفحات بين صفحتى ٧٢ ا و ٧٢ ب فى بابى الغزل والتشبيهات المختلفة ، وهما البابان الأخيران فى الكتاب رقم ٥ ، ٦ .

ويبدو أن بعضا من أوراق الكتاب المفقودة كانت متآكلة أو دشتاً فى أثناء فهرسة الكتاب لوجود صفحة فى آخر النسخة المصورة أمكن قراءة بعض كلماتها المتآكلة ، والتى تدل أنها من باب الغزل جاء فيها :

ولبعضهم فى العذار

ثم يعقبها ببيتين من الشعر لم يمكن قراءتهما قراءة صحيحة .

وختم الناسخ الكتاب بقوله: « بلغ مقابلته بأصله وصح بصحته » . والخط واضح لولا وجود كثير من الأخطاء النحوية والإملائية .

ويبدأ الكتاب بمقدمة ، وإهداء يهدى به على بن ظافر كتابه إلى الملك الأفضل على بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . يقول : « وقال على بن ظافر الأزدى ثم الخزرجى : لم أزل فى كل زمان ومكان أسمع من أوصاف المآثر الملكية الأفضلية ، والمناقب النورية السلطانية . . إلخ » ويورد فى الكتاب بعد الإهداء مباشرة قصيدة مديح فى الأفضل يوم الأحد الموافق لخمس خلون من جمادى

الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وعسكر السلطان صلاح الدين على حصار عكا .

ويبدأ الكتاب بمقدمة أخرى يقول فى أولها : « أما بعد حمد الله العزيز القهار عالم خفايا الأسرار . . . إلخ » ويختمها بتقسيم الكتاب إلى ستة أبواب رئيسية هى :

الأول — فى تشبيه الأجرام العلوية .
الثانى — فى تشبيه المياه والأنهار .
الثالث — فى تشبيه الأنوار والأثمار والنبات .
الرابع — فى التشبيه الواقع فى الخمريات .
الخامس — فى التشبيه الواقع فى الغزل .
السادس — فى تشبيهات مختلفة .

وينقسم كل باب بعد ذلك إلى فصول تتراوح بين خمسة وعشرة .

فالباب الأول فى الأجرام العلوية وينقسم إلى عشرة فصول : فى ذكر التشبيه الواقع فى الهلال وفى الثريا ، وفى سائر النجوم ، وفى القمر عند انتصافه وكماله ، وفى حالاته المختلفة ، وفى وصف القمر ووصف صوره على الماء ، ثم يعدل إلى ذكر التشبيه المستحسن فى ضوء الشمس على الماء ، ويعود مرة أخرى للتشبيهات فى الثريا فى الفصل السابع ، ثم فى سائر النجوم مرة ثانية أيضا ، ويخرج إلى التشبيهات فى قوس قزح والثلج والبرق والغمام فى الفصل الثامن ، والفصل التاسع فى تشبيه المجرة ، والعاشر فى تشبيه الصبح .

ونلاحظ عدم انتظامه فى الحديث عن كل موضوع يتطرق له ، إذ يكرر الحديث فى الثريا والنجوم ، وفى التشبيهات الواقعة فى القمر والهلال .

والباب الثانى متعلق بمظاهر الطبيعة على الأرض ، ويدور فى التشبيهات الواقعة فى المياه والأنهار والغدران ، وينقسم هذا الباب إلى خمسة فصول ، الأول فيما قيل فى الأنهار ، والثانى فى الأنهار الهادئة والغدران الساكنة ، والثالث فى حركة المياه ويشمل التشبيه الواقع فى تغير ماء الأنهار بالمدود ، والرابع فى تشبيهات عامة متصلة بالموضوع ، والخامس فى تشبيه الفوارات وما شابهها .

والباب الثالث في ثلاثة فصول تتعلق بالتشبيهات الواقعة في الأول في الأزهار ، بادئاً بالنرجس ثم الورد بألوانه ، وأطال فيما أورده من التشبيهات المتصلة بالنرجس كثيراً عن الورد مما يوحي بأنه يقدمه على سائر الزهور . ونلاحظ كذلك أنه ختم آخر تشبيهاته في حسن الورد بتشبيه في ذمه. ثم التشبيهات في الجلنار ، والبنفسج ، والسوسن ، والآذريون، والخرم ، والمنثور والخيرى بألوانه ، والياسمين ، والنيلوفر ، والريحان ، وشقائق النعمان ، وزهر الباقلاء ، والحماحم والأقحوان، والبهار ، والآس .

ونلاحظ في هذا الباب اضطراباً كما هو الحال في الباب الأول ، فقد كرر القول في الشقائق وغيرها ، إذ يتحدث عن الشقائق ، ثم يخرج منها إلى القول في زهر الباقلاء ، ثم يعود للشقائق مرة أخرى ، وربما كان هذا الاضطراب راجعاً إلى الناسخ ، أو اختلاط أوراق النسخة عند ترتيبها .

ويذكر في الفصل الثاني التشبيه الواقع في الثمار كالأترج والنارنج ، والتفاح واللفاح والعنب والخوخ ، والطلع والمشمش ، والبسر ، والتمر والجمار ، والموز ، والرمان ، والسفرجل والكمثرى والتين ، والنبق ، والتوت ، واللوز الأخضر ، واليربوج ( البرقوق ) .

والفصل الثالث في سائر النبات والأنقال ، كالبطيخ والعناب ، والصنوبر ، والفستق ، والجوز ، والقسطل ( الكستناء ) ، والفول المصلوق ، والباذنجان ، والخشخاش ، وزهر الكتان والسلجم ، وسنابل القمح ، والبر .

والباب الرابع في الخمريات وفيه خمسة فصول ، الأول في تشبيه الكأس بعد المزج ، والثاني في الساقي ، والثالث في الإبريق والكأس ، والرابع في الشراب الأسود ، والخامس في تشبيه ضوء الخمر .

والباب الخامس في التشبيه الواقع في الغزل ، والفصل الأول في الثغور والشفاه ؛ وبعد صفحة من بدء الباب يحدث الخرم .

ثم يدخل الخرم إلى الباب السادس في تشبيهات مختلفة ، ويبدأ الحديث في الفصل الرابع من هذا الباب في التشبيهات الواقعة في الطعام والمائدة ، وما يتصل بهما . وبعد .

والخامس فيما قيل في الرّاى الطرى ، والسادس فى تشبيه أنواع من المآكل ، والسابع فى جملة من التشبيهات فى أرباب الصناعات ، والثامن فى الحيوانات كالفرس والغزلان ، والزرافة والفيل والطاووس والأوز ، وبنات وردان ، والبق والبراغيث . والفصل التاسع فى آلات الحرب كالسيف والترس والدرع والرماح . والعاشر فى تشبيهات متنوعة ، فى زامرة سوداء ، وأهرام مصر ، ودولاب الماء وما إلى ذلك ، مما يقع تحت باب من أبوابه السابقة .

وينتهى الكتاب بأبيات ، وخاتمة نثرية يوجهها للأفضل راجياً أن يقع الكتاب عنده موقعاً طيباً ، وأن يجزيه عليه الجزاء الحسن .

ونلاحظ أن مختارات ابن الظافر من الشعر قد غلب عليها شعر المحدثين والمعاصرين له من شعراء مصر والشام والعراق والأندلس والمغرب . وذكر كثيراً من شعراء اليتيمة مشارقة ومغاربة ، واستعان بما أورده الثعالبى فيها من أشعارهم ، كما اعتمد على خريدة القصر للعماد الأصبهانى ، والرسالة المصرية لابن أبى الصلت . واهتم اهتماماً خاصاً بالأندلسيين والمصريين والمغاربة ، وجمع مختارات من شعرائهم لا توجد فى كثير مما بين أيدينا من المصادر كمختاراته من شعر ابن رشيق القيروانى ، وشعر ظافر الحداد المصرى ، وابن قلاقس الإسكندرى . بل إن بعض مختاراته من الشعراء الذين طبعت دواوينهم لم نعثر عليها فى تلك الدواوين كبعض مختاراته من ابن الرومى وابن المعتز .

وجمع إلى هؤلاء الشعراء المذكورين مختارات من شعر جماعة من الشعراء المجهولين الذين لم نستطع التعرف عليهم ، على كثرة ما رجعنا إليه من المراجع والمظان ، وإن كانوا فى ظننا لا يتعدون دائرة القرنين الخامس والسادس . ويغلب أنهم لم يكونوا شعراء محترفين أصحاب دواوين ؛ إنما يقولون الشعر تظرفا وتملحا ، فى مقطوعات على البادرة من مثل ما جمعه المؤلف نفسه فى كتابه الثانى : « بدائع البدائه » .

ولم يكن ابن ظافر دائماً موفقاً فى اختياراته ، بل ربما جافاه الذوق أحيانا كاختياره تشبيه ابن خفاجه فى التين :

وقـد سال من فمه شَهْدُهُ ... كما سـال ريق حبيب نَعَس

وهى صورة منفرة للآكل كتلك الصورة التى عابها ابن رشيق فى تشبيه أحد الخالديين للخمر ومايعلوها من الحب بالزَّبَد الذى يخرج من فم مَنْ مسه الجن . ولا يشفع لاختيار ابن ظافر هنا كون الريق ريق حبيب .

وقد أورد المؤلف كثيراً من شعره فى الفصول المختلفة ، ويبدو شعره متوسط المستوى .

وبعد ؛ فإن الفائدة التى نخرج بها من الكتاب ، ومن غيره من كتب التشبيه هى كما قلنا فائدة متعددة الجوانب ، فهى تزودنا بمختارات مجهولة أو جديدة من الشعر العربى ، وهى توقفنا على صنعة الشعراء فى فن التشبيه ، وقدرتهم فى تحصيل وجوه الشبه ، وتطلعنا على أذواق العصور المختلفة فى بلاد الوطن العربى شرقيه وغربيه ، ومظاهر الحضارة ، وأذواق الناس ومدى تعشقهم لسمات الجمال فى الأشياء ، وفى مناظر الطبيعة ، وفى الجمال البشرى كما تقفنا على طبائعهم ، وعاداتهم وسلوكهم ، وما كانوا يستخدمون من أدوات على ما أشرنا إليه من قبل .

**عملنا فى التحقيق :**

لقد سرنا فى تحقيق الكتاب على أساس القراءة الصحيحة للنص على قدر الإمكان فى حدود رسوم الكتابة ، فإن استعصى قراءة لفظ لعدم وضوحه أو غرابته ، أو ضياع بعض حروفه نهتدى بالمراجع التى ربما أوردت النص من دواوين أو مجموعات شعرية ، أو مظان أخرى ، وكثيراً مانجد خلافاً بين رواية الكتاب ورواية المراجع ، فإذا كان الخلاف راجعا إلى خطأ لغوى ، أو تصحيف أو تحريف من الناسخ أثبتنا القراءة الصحيحة ، وإلا فإنا نثبت قراءة النص مادامت سليمة متمشية مع وزن البيت ومعناه .

ولم تكن القراءة كل حين سهلة برغم وضوح الخط ، لا شتباه الحروف وانطماسها ، ووجود خرم فى بعض الصفحات تضيع معه معالم بعض الحروف ، وربما كلمات بأكملها ، ونبذل الجهد لتحصيل الكلمة الضائعة ، والتثبت من صحتها ، كذلك عانينا الجهد لتصحيح القراءة لكثرة أخطاء النسخة الإملائية واللغوية ، والتى ترجع إلى جهل النقلة .

وقد حققنا معظم الأعلام الواردة فى الكتاب مع الإشارة فى الهوامش إلى مصادر الترجمة لكل علم وكذلك الحال فى الشعر . وفاتتنا بعض الأعلام التى لم نعثر على ترجمة لها على كثرة ما بذلنا فى سبيل التعرف عليها ، وفاتتنا كذلك بعض النصوص الشعرية لم نتعرف على مصادر لها ولم نعثر عليها لتتم المطابقة .

وقمنا بشرح غريب الألفاظ دون المستعمل المطروق ، وحرصنا ما استطعنا على بيان معانى الأسماء الكثيرة الواردة فى الكتاب للفاكهة والورود والأطعمة والأشربة والملابس والاصطلاحات الفلكية وأسماء النجوم والبروج .

وضبطنا بالشكل النصوص والأعلام ، وذلك حتى يكون الكتاب ميسور القراءة ميسور الفهم للقارئ المعاصر .

وقمنا إتماماً للفائدة بعمل فهارس تفصيلية للأعلام ، ومصطلحات الحضارة ، وأسماء الملابس والمطاعم والمشارب التى وردت بالكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا [محمد]
قال ............ علي بن ظافر الازدي ثم الخزرجي لم
ازل في كل اوان وزمان اسمع من اوصاف المآثر الملكية
الافضلية والمناقب المؤيدية السلطانية ما تارج به
نوادي المحاضر ونفثه به الخواطر والحاضر واثبات هذه
من آثاره ما تثني عليه الخناصر ويتعجب من صدوره
من عصر الفت فيه العناصر [illegible] كادا [illegible] الى تلك
الحضرة من الشوق [illegible] عمره المتوقد [illegible]
الطوق [illegible] انفق لي ان مثلت بالحضرة الناصرية
خلد الله ملكها [illegible] الملك وملكه الخلد وادام
العلو واعلى له الامر لعزمة كانت من مهمات
القلب امضاها وحاجة في نفس يعقوب قضاها
فحللت مقامه الاسمى مادحا وبرئت على دوحه
فضله الباسقة [illegible] صادحا [illegible] نصرة [illegible]
[illegible] لا اعني [illegible] الانشاد [illegible]
واردة [illegible] الاعلام [illegible]
وعرضا لا [illegible] على [illegible] صموتا لما

لما حللت بفنائه ستر الفقر وبما القيته صار الحبر
[illegible] اهديت الى جنابه الاسمى نصر الله عزمه واعز
نصره ورفع علوه واعلى قدره تحف مدائحي العمر
وقصائدي المزرية ببهجة الزهر ونحو العقود الدر
وخدمت مقامه بهذا الكتاب الذي ما اظن
[illegible] انه [illegible] فيما سلف من الزمن ولا اظن
ان احدا يجمع مثله فيما بعد [illegible] من [illegible]
[illegible] هذه الفضيلة [illegible] نوعا من حلبة
ما اودعته فيه من غرائب [illegible] وروعتها [illegible]
يوم الاحد خمس خلون من شهر جمادى الآخرة سنة
سبع وثمانين وخمسمائة بالعسكر المنصور على
[illegible] فتح عكا [illegible] في صفة العسكر
[illegible] المعسكر بالشام [illegible] الخيام
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] من الحمام

# غرائب التنبيهات